

الكناية القرآنية ومكوناتها التربوية

(دراسة على تعبيرات الكناية في سورة البقرة)

إعداد: شمسوني الماجستير

الملخص

وعلم من البحث أن تعبيرات الكناية كائنة في ثلاث عشرة آية من سورة البقرة، ولها دورها في تربية الله الخلق على قبول الهداية، ولها أسرار في التربية الإسلامية؛ فهي نافعة في تدريب الطلاب والطالبات وتعوددهم على التفكير في فهم الدروس وفي إيقاظ حماسهم وتثييرهم على طلب الحقيقة ورآء الأشياء والوقائع، وبها يظهر المعلمون المعاني المعقولة في صورة المحسوسات، وبها يبعدون عن المعاني غير المستحسنة، وبها يخاطبهم على قدر عقولهم مراعاةً على مستوى الأطفال من الناحية العقلية ومراعاةً على طريق الرحمة البعيدة عن التوبيخ، وهو أحد الخيارات الذي يمكن تطبيقه في طريقة ثناء ومدح الأطفال وتشجيعهم على التعلم وتقويم سلوكهم وتهذيب أخلاقهم.

أ-المقدمة

القرآن المجيد الذي اقتضت حكمة الله ألا يبقى في الوجود أثر ثابت للوحي الإلهي سواه، بعد أن اندثرت أو زالت أو اختلطت الكتب السماوية السابقة بغيرها من العلوم الذي وضعها البشر: هو منار الهداية، ودستور التشريع، ومصدر الأنظمة الربانية للحياة، وطريق معرفة الحلال والحرام، وينبوع الحكمة والحق والعدل، ومعين الأدب والأخلاق التي لا بد منها لتصحيح مسيرة الناس، وتقويم سلوك الإنسان.¹ وهو كلام الله المعجز، الذي عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله من سورة من سوره، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، باللفظ العربي، وبواسطة الأمين جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف، المتعبد بتلاوته،² المنقول بالتواتر³ المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس.⁴

¹ وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، (بيروت: دار الفكر المعاصر، 1997)، ج. 1، ص. 13.

² أي لا تصح الصلاة إلا بتلاوة شيء منه، كما أن مجرد تلاوته عبادة يثاب عليها مسلم.

³ التواتر: ما ينقله جمع عظيم عن جمع غفير يؤمن في العادة تواطؤهم على الكذب.

محمد على الصابوني، التبيان في علوم القرآن، (مكة: دار عالم الكتب، 1985)، ص. 8.

وقد علم قطعاً، أن هذا القرآن المجيد المعجز استخدم اللغة العربية في توصيل الرسالة الإلهية إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغها إلى الأمة الإنسانية، قال الله تعالى في سورة يوسف بيانا عن اللغة التي استخدمها: **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** (يوسف/2:12)

فمن مظاهر إعجازه روعةً بيانه وبلاغةً أسلوبه وجزالةً ألفاظه أو نظمه، سواء في اختيار الكلمة القرآنية أو الجملة والتركيب ونظم الكلام⁵ والكناية هي إحدى أساليب القرآن في تبليغ الرسالة الإلهية للأمة الإنسانية، فهي تبرز المعاني في صورة حية تستقر في الأذهان، بتشبيهها الغائب بالحاضر، والمعقول بالمحسوس، وقياس النظر على النظر، وكم من معنى جميل أكسبته روعةً وجمالاً، فكان ذلك أدعى لتقبل النفس له، وإقناع العقل به. ووردت كثيرا القرآن الكريم، معظمها في سورة البقرة.

والله تعالى ربنا ورب كل شيء، أولى مرتباً ومؤدباً ثم يليه النبي محمد صلى الله عليه وسلم خاتم جميع الأنبياء والمرسلين، كما أشاره صلى الله عليه وسلم في حديثه: **أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي**،⁶ وهو تعالى معلم الناس ومدرّسهم، كما بين في قوله: **الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** (الرحمن/55: 1-4)، وبهذا القرآن المجيد يربّي الناس ويؤدّبهم ويعلمهم ويدرّسهم باستخدام أساليب متنوّعة في تعبيره، ومنها باستخدام أسلوب الكناية.

وكان الله تعالى صاحب هذا الكلام خالق كل شيء في الأرض وفي السماوات وما بينهما، ما خلق شيئاً إلا وفيه حكمة، وما استعمل شيئاً إلا وفيه عبرة، وما عبر عن شيء إلا وفيه عظة، فما استخدم الكناية في تعبير أسلوب هذا القرآن المجيد إلا وفيه سرّ نافع لعباده، وبالخصوص في تربية العباد وتأديبهم، لأنه تعالى لم يجعل شيئاً ما عبثاً. وإلى هذا أشار بقوله: **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** (ال عمران/3: 191)

ب- معنى الكناية

الكناية في اللغة: مصدر لفعل "كنيت" أو "كنوت"، تقول: كنيته بكذا عن كذا... تكلمت بما يستدلّ به عليه. أو تكلمت بشيء وأردت غيره.⁷

وفي المعجم المفصّل في علوم البلاغة أن الكناية من فعل **كَنَّ** يَكْنُ كَنَّ الشيء: ستره في كنهه وغطاه وأخفاه، والعلم: أسرّه.⁸

⁵ وهبة الزحيلي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 30

⁶ عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، (مصر: المكتبة التجارية الكبرى، 1356)، ط. 1، ج. 1، ص. 225، وانظر أيضاً إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1405)، ط. 4، ج. 1، ص. 72

⁷ أنظر محمد بن أبو بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، (بيروت: مكتبة لبنان، 1988)، ص. 242

⁸ انعام فوال عكاوي، المعجم المفصّل في علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني، (بيروت: دار الكتب العلمية، بدون السنة)، ص.

وذكر ابن منظور في "كنى": الكنية على ثلاثة أوجه. أحدها: أن يكنى عن الشيء الذي يتفحش ذكره. والثاني: أن يكنى الرجل باسم توقيرا وتعظيما. والثالث: أن تقوم الكنية مقام الاسم فيعرف بها كما يعرف باسمه كأبي لهب إسمه عبد الغزى عرف بكنيته فسماه الله بها. والكنية والكينية واحدة الكنى، واكتنى فلان بكذا. والكناية أن تتكلم بشيء وتريد غيره. وكنى عن الأمر بغيره كناية. يعني إذا تكلم بغيره مما يستدلّ عليه. واستعمل سيبويه الكناية في علامة المضمّر.⁹

وفي هذا النص جمع ابن منظور بين المعنى اللغوي والنحوي والإصطلاحي، وإن لم يكن الأخير محمدا تحديدا دقيقا.

فقد عبر الخطيب القزويني عند بيانه معنى الكناية بقوله: "الكناية: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه أيضا".¹⁰ والخطب فيها ميسور، لأن عبد القاهر نظر إلى الواقع فوجد المعنى الحقيقي لازما وتابعا في الوجود للمعنى الكنائي، لأن القامة إذا طالت طال النجاد وإذا كثر القرى كثر رماد القدر، وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى.

وعلى هذا المعنى عبر علماء البيان عند بيانهم معنى الكناية بعبارة مختلفة متقاربة المعنى. فقال ابن الزملاكي: وهي أن تريد إثبات معنى فتترك اللفظ الموضوع له وتأتي بتاليه وجودا لتومئ به إليه وتجعله شاهدا له ودليلا عليه.¹¹

وذكر صاحب المثل السائر عدة تعريفات ورجح: أنها كل لفظة دلّت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز.¹² وقال الزركشي: الكناية عن الشيء الدلالة عليه من غير تصريح باسمه، وهي عند أهل البيان أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له من اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورديفه في الوجود فيومئ إليه ويجعله دليلا عليه فيدل على المراد من طريق أولى.¹³

فمن البيان السابق، يمكن أن يقال أن الكناية هي: اللفظ الذي يراد به لازم معناه مع جواز إرادة معنى الأصلي. ومعنى ذلك أن المتكلم قد يريد إفادة معنى من المعاني فلا يذكره بلفظه الصريح الذي وضع له في أصل اللغة، بل يتوصل إليه بذكر لفظ يدل على معنى من شأنه أن يكون متبوعا في التعقل وتفهم المعنى المراد، فالمعنى المتبوع هو المعنى الحقيقي للفظ، والمعنى التابع هو المعنى الكنائي المراد من اللفظ.

⁹ ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب، (مصر: الدار المصرية لتأليف والترجمة، بدون السنة)، ص. 98-99

¹⁰ أبو المظفر، ناصر المطرزي، الإيضاح في شرح مقامات الحريري، (إيران: المكتبة، بدون السنة)، ص. 218

¹¹ أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، (بغداد: المعرفة، 1394هـ/1964م)، ص. 105

¹¹ نصر الله ابن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلبي المعروف بابن الأثير، المثل السائر، (القاهرة: مطبعة حجازي، 1454هـ/

1935م)، ط. 1، ص. 248

¹² محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (بيروت: دار المعرفة، 1391هـ)، ج. 2، ص. 301

ج- حقيقة التربية الإسلامية

فمصطلح "التربية" في الإسلام كثيراً ما يعرف بكلمة "التربية، والتعليم، والتأديب". وكل هذه الثلاثة متباينين في النص والاستعمال ولو كان مرادفاً في الحقيقة عند بعض الحال، ففي الأساس إنما يصدر هذا التباين من اختلاف فهم كل الفرد عن معنى التربية نفسها. لكن ذلك الخلاف غير معتبرة، لأن أهمية التربية الإسلامية ليست في مجرد بحث مصطلح "التربية"، بل في إبداع أسلوب التربية وتطبيقها على مستوى دين الإسلام.

ثم لما قُيِّدَت التربية بالإسلام فتزيد من مجرد معنى التأديب، لأن الإسلام دين كافة، واسم لمفهوم المعلومات الشاملة عن الإله والمجتمع والإنسان والكون كله، وهو النظام الإلهي كاملاً شاملاً لجميع نواحي الحياة وارتضاه لتنظيم علاقة البشر بخالقهم وبالكون والخلائق، وبالدين والآخرة، وبالمجتمع والزوج والولد والحاكم والمحكوم، ولتنظيم كل الإرتباطات التي يحتاج إليها الإنسان، تنظيمًا مبنيًا على الخضوع لله وحده وإخلاص العبودية له، وعلى أخذ بكل ما جاء به الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم. وهذه النظرة الشاملة المتكاملة لها متضمنات تربوية تقضي بأن تكون التربية الإسلامية شاملة متكاملة تعني بالجوانب المختلفة للإنسان، وتحقق له التوازن والإنسجام في حياته، موفقاً بين مطالب الروح ومطالب الجسم، وبين واجبات الدين وواجبات الدنيا مضطلعاً بمهامه في مجتمعه، مؤمناً بالإخوة الإنسانية للناس أجمعين. فهي التربية التي تهتم بتطوير جميع نواحي الفطرة الإنسانية، فلم يعرف فيها أن هذه الناحية أولى بالإهتمام من الأخرى بل كلها على حد سواء. وهي التربية التي تنشئ الإنسان المتكامل بدون إهمال الكون الذي يحيا فيه والخضوع إلى الله وحده الفعال لما يريد ويده الملك وإليه ترجع الأمور.

وقال مقداد بالجن: أن التربية الإسلامية هي تنشئة وتكوين إنسان مسلم متكامل من جميع نواحيه المختلفة من الناحية الصحية والعقلية والإعتقادية والأخلاقية والإرادية والإبداعية في جميع مراحل نموه في ضوء المبادئ والقيم التي أتى بها الإسلام وفي ضوء أساليب وطرق التربية التي بينها، أوبتعريف مختصر هي إعداد المسلم كاملاً من جميع النواحي في جميع مراحل نموه للحياة الدنيا والآخرة في ضوء مبادئ والقيم وفي ضوء أساليب وطرق التربية التي جاء بها الإسلام.¹⁴

وقال خالد بن عبد الكريم الخياط: إن التربية الإسلامية هي عملية مندرجة ومقصودة وغائية لكل فرد في المجتمع لتوجيه الإنسان نحو خالقه من خلال مجموعة من المبادئ والقيم المستمدة من الكتاب والسنة التي تعمل على النمو السليم المتوازن في الروح والعقل والنفس والجسم، وتحدث التكيف الاجتماعي.¹⁵

¹⁴ مقداد بالجن، جوانب التربية الإسلامية الأساسية، (رياض: موسوعة التربية الإسلامية، 1406هـ/1986م)، ط. 1، ص. 26

¹⁵ خالد بن عبد الكريم الخياط، الأسلوب التربوي للدعوة إلى الله في العصر الحاضر (بيروت: دار الفكر، بدون السنة)، ص. 24

وقال عبد الرحمن النحلاوي: التربية الإسلامية هي: تنمية فكر الإنسان، وتنظيم سلوكه، وعواطفه، على أساس الدين الإسلامي، ويقصد تحقيق أهداف الإسلام في حياة الفرد والجماعة أي في كل مجال الحياة. فعلى هذا، هي عملية تتعلق قبل كل شيء بتهيئة عقل الإنسان وفكره وتصوراته على الكون والحياة وعن دوره وعلاقته بهذه الدنيا وعلى أي وجه ينتفع بهذا الكون وبهذه الدنيا، وعن غاية هذه الحياة الموقته التي يحياها الإنسان، والهدف الذي يجب أن يوجه مساعيه إلى تحقيقه.¹⁶

فمن تلك التعريفات يمكن أن يلخص، أن التربية الإسلامية كانت سعيا واكتسابا في تربية الإنسان كاملا شاملا (الجسدية والروحية) بتطوير كل جوانب الفطرة الإنسانية على أساس التعاليم الإسلامية لتكوين الإنسان الكامل.

د- تعبيرات الكناية في سورة البقرة

فسورة البقرة هي أطول سور القرآن الكريم الذي نزل بلسان العرب، لم تخرج من طبيعة اللغة العربية في استعمال اللفظ بطريق الحقيقة تارة، واستعماله بطريق المجاز لعلاقة بين المعنى الأصلي للكلمة، والمعنى الآخر الذي استعملت فيه، واستخدام التشبيه، والإعتماد على الإستعارة، واستخدامه تعبير الكناية (وهي لفظ أريد به غير معناه الذي وضع له، مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته).¹⁷

وهذا الأخير يعني استخدامه تعبير الكناية، هي التي خصصتها بالبحث، فبع بذل الطاقة للإستقراء والتفتيش مع كمال دقة وتيقظ وجدتها في ثلاث عشرة آية. وأشرع الآن في شرح تعبير الكناية الموجودة فيها بما يلي:

1- فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ عَدَابٌ لِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10)

فتعبير الكناية في هذه الآية هو "فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ"، والمرض مصدر، وهو يدور على أربعة أشياء: فساد، وضعف، ونقصان، وظلمة.¹⁸

- 1) الفساد، ومنه: مرض فلان أي فسد جسمه وتغيرت حاله، ومرضت بالمرض أي تغيرت وفسدت.
- 2) الضعف، ومنه: مرض الرجل في الأمر أي إذا ضعف فيه ولم يبالغ، وعين مريضة النظر أي فاترة ضعيفة، وريح مريضة أي إذا هب هبوحها، كما قيل: راحت لأربعك الرياح مريضة. أي لينة ضعيفة، حتى لا يعفي أثرها.

¹⁶ عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، (بيروت: دار الفكر، 1499هـ/

1979م)، ط. 1، ص. 26

³ أنظر صبحي صالح، مباحث في علوم القرآن، (بيروت: دار الفكر، بدون السنة)، ص. 322-333

¹⁸ ابن القيم، التفسير القيم، (بيروت: دار الفكر، 1408هـ/1988م)، ص. 113-114

3) النقصان، ومنه: بدن مريض أي ناقص القوة، وقلب مريض أي ناقص الدين، ومريض في حاجتي أي إذا نقصت حركته.

4) الظلمة، ومنه: قول الشاعر:

وليلة مرضت من كل ناحية فما * يضيء لها شمس ولا قمر

وهذه الأربعة هي أصل المرض في اللغة، ثم الشك والجهل والحيرة والضلال وإرادة الغي وشهوة الفجور في القلب تعود إلى هذه الأمور الأربعة، فيتعاطى العبد أسباب المرض لإيثاره أسبابه وتعاطيه لها.

فهو كناية عن صفة، قصد الله تعالى وصفهم بالنفاق، فعدل التصريح بما أراد إلى الإشارة إليه بالمرض؛ لأن المرض فساد للجسد، والنفاق فساد للقلب. وهو اسم شرعي جعل سمة لمن يظهر الإيمان ويسر الكفر.

فسر جمال الكناية في هذه الآية أن الله صور المعقولة يعني ما يعتقدون في قلوبهم من النفاق بالمحسوسة يعني بمرض القلب، وفيه قياس النظير على النظير فيتضح المعنى ويتقرب الفهم.

2- الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ... (27)

فتعبير الكناية في هذه الآية هو "ينقضون عهد الله". وإنه استعارة بالكناية، حيث شبه العهد بالحبل، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو النقض، وسمي العهد حبلًا على سبيل الاستعارة، لما فيه من ثبات الصلة بين المتعاهدين، يعني أن أصل استعمال النقض هو في الحبل، ثم استعمل في العهد؛ لأنه يشبهه.¹⁹

فسر جمال الكناية في هذه الآية أنها صورت المعنوي يعني إبطال العهد في صورة حية حسية صريحة يعني بنقضه كنقض الحبل أي فك طاقات الحبل، فالكناية هنا دلت على المعنى ببرهان بالغ التأثير، وبها يتضح المعنى ويتأكد.

3- اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ... (61)

فتعبير الكناية في هذه الآية هو "وضربت عليهم الذلة والمسكنة"، وإنه استعارة بالكناية عن احاطتهما بهم، كما تحيط القبة بمن ضربت عليه كما قال الشاعر:²⁰ إن السماحة والمروءة والندى * في قبة ضرب على ابن الحشرج

وضربت عليهم: جعلت ووضعت عليهم. الذلة: الذل والهوان. المسكنة: الفقر والحاجة.

¹⁹ أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزنجشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، (بيروت: دار الفكر، بدون السنة)، ج. 1، ص. 268، وانظر أيضا أحمد الصاوي المالكي، حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين ، (بيروت: دار الفكر، بدون السنة)، ج. 1، ص. 18

²⁰ محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، (بيروت: دار الفكر، بدون السنة)، ص. 55

فسر جمال الكناية في هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى عبر عن شدة طمعهم وعدم قناعتهم على ما أعطاه إليهم وعدم شكرهم عليه بعبارة جميلة لطيفة تفرع باب قلوب ذوي الأبصار على الإنصاف والرجوع، يعني بضرب الذلة والمسكنة عليهم كضرب القبة المحيطة على صاحبها، وفيه قياس المعقول بالمحسوس والنظير بالنظير فيتحلي المعنى ويتأكد.

4- فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (66)

فتعبير الكناية في هذه الآية هو "لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا"، وفي اللغة ما بين يديها: ما يوجد كائنا أمامها، وما خلفها: ما يوجد كائنا ورائها. و العبارة هنا كناية عن ما أتى قبلها أو بعدها من الخلائق.

فسر جمال الكناية في هذه الآية أنه تعالى عبر عبارة واضحة حية عن الأمم التي في ذلك الزمان بـ "لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا"، لأن الزمان الذي يكون الشخص فيه كالشيء الحاضر بين يديه. و الأمم التي بعده بـ "وَمَا خَلْفَهَا"، لأنه كالشيء الذي قد مر ورائه، وفيه قياس البعيد على القريب والنظير على النظير قيتقرب الفهم ويظهر المعنى واضحا.

5- قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ (93)

وتعبير الكناية في هذه الآية هو "وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ"، فإنه إستعارة بالكناية، شبه حب عبادة العجل بمشروب لذيذ سائغ الشراب بجامع الإمتزاج في كل، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الإشراب. فخالط حب العجل قلوبهم، كما يخالط الشرب الجسد. وكما نقل الصابوني من تلخيص البيان للشريف الرضي: "وهذه استعارة والمراد وصف قلوبهم بالمبالغة في حب العجل فكأنها تشربت حبه فمازجها ممازجة المشروب، وخالطها مخالطة الشيء الملدود"²¹.

فسر جمال الكناية في هذه الآية أنه تعالى عبر عن حال حب عبادة العجل بمشروب لذيذ سائغ للشاربين، وفيه تجسيم المعقولة (اختلاط وامتزاج ميل وحب عبادة العجل في قلوبهم) بالمحسوسة (اختلاط وامتزاج شراب لذيذ سائغ للشاربين) فيتجلى المعنى وضوحا ويتأكد؛ لأن الإشراب فيه شدة مخالطة من غيره مثل الأكل.

6- وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101)

وتعبير الكناية في هذه الآية هو "كتاب الله وراء ظُهُورِهِمْ" فإنه مثل يضرب للإعراض عن الشيء جملة، تقول العرب: جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولى عنه معرضا، لأن ما يجعل وراء الظهر

²¹ الصابوني، المرجع السابق، ص. 71

لا ينظر إليه²²، فهو كناية عن الإعراض عن التوراة بالكليّة، فلم يعملوا بما فيها من الإيمان بالرسول وغيره.

فسر جمال الكناية في هذه الآية هو الإثبات بالمعنى مصحوباً بالدليل، مع تجسيم هذا المعنى، فصفة الإعراض تجسّمت بجعل كتاب الله وراء الظهور.

7- أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي (133)

وتعبير الكناية في هذه الآية هو "حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ"، والحضر هنا بمعنى الحين يقال حضر وقت الصلاة إذا حان وقتها. فكنى الله سبحانه وتعالى بالموت عن مقدماته؛ لأنه إذا حضر الموت نفسه لا يقول المحتضر شيئاً.

فسر جمال الكناية في هذه الآية أنه تعالى عبر عن قرب خروج الروح عن الجسد بعبارة رائعة؛ يعني بحضر يعقوب الموت، وفيه قياس الصفة (الموت) بالذات المتصف بالحياة الذي يمكن أن يجيع ويذهب، يغدّ ويروح، فيكون المعنى واضحاً لمن خوطب بها.

8- أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ هُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ... (187)

ففي هذه الآية ثلاث كنايات:

فالأول: "أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ"،

فالرفث في الأصل هو الإفصاح بما ينبغي أن يكنى عنه مما يقع بين الرجل وامرأته. يقال رفث في كلامه إذا فحش وأفصح بذكر الوقاع وشؤونه أو حادثة النساء في ذلك،²³ وقال الأزهري الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من المرأة.²⁴ وحقق الراغب أن الرفث كلام مضمن لما يستقبح من ذكر الوقاع ودواعيه،²⁵ فهو كناية عن الجماع أي عن الإفضاء إليهن ومباشرتهن، وجعل كناية عنه في الآية على جواز دعائهن إلى ذلك ومكالمتهن فيه. والأصل فيه أن يتعدى بالباء وعدي هنا بـ "إلى" لتضمنه معنى الإفضاء.²⁶

والثاني: "هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ هُنَّ"،

²² نفس المرجع، ص. 74

²³ رشيد رضا، تفسير المنار، (بيروت: دهر الفكر، بدون السنة)، ج. 2، ص. 175

²⁴ نفس المرجع

²⁵ الراغب الأصفهاني، معجم مفردات الألفاظ القرآن، (بيروت: دار الفكر، بدون السنة)، ص. 105

²⁶ محمود الألوسي البغدادي، روح المعاني، (بيروت: دار الفكر، بدون السنة)، ج. 2، ص. 98

وقال صاحب الكشاف أن لفظ لباس هنا مصدر "لابسه" بمعنى خالطه وعرف دخائله، لا بمعنى إطلاق اللباس والإزار على المرأة.²⁷ وقال ابن عباس معناه هن سكن لكم وأنتم سكن لهن.²⁸ حين سأله نافع بن الأزرق وأنشد رضي الله عنه لما قال له هل تعرف العرب ذلك؟ قول الذبياني:

إذا ما الضجيع ثنى عطفها * تثنت عليه فكانت لباسا

وقال بعضهم إنه كناية عن الستر المقصود من اللباس لأن كلا من الزوجين ستر للآخر واحصان له، وهو بمعنى الغشيان، والتغشي من ألفاظ الكناية عن الوظيفة الزوجية.²⁹

وشبه كل واحد من الزوجين، لاشتماله على صاحبه في الاقتراب والعناق والضم، باللباس المشتمل على لابس، فكل من الزوجين بمثابة لباس للآخر؛ لأنه يستر صاحبه، كما يستر اللباس ويمتعه من الفجور، والتعبير القرآني كناية عن تعانقهما أو احتياج كل منهما إلى صاحبه.³⁰ والحاصل أن لتعبير الكناية في هذه الآية وجوها:

- (1) أنه لما كان الرجل والمرأة يعتنقان، فيضم كل واحد منهما جسمه إلى جسم صاحبه حتى يصير كل واحد منهما لصاحبه كالثوب الذي يلبسه، فلذا سمي كل واحد منهما لباسا.
 - (2) إنما سمي الزوجان لباسا ليستر كل واحد منهما صاحبه عما لا يحل، كما جاء في الخبر: من تزوج فقد أحرز ثلثي دينه.
 - (3) أنه تعالى جعلها لباسا للرجل، من حيث أنه يخصها بنفسه، كما يخص لباسه بنفسه، ويرأها أهلا لأن يلاقي كل بدنه كل بدنها كما يعمله في اللباس.
 - (4) يحتمل أن يكون المراد ستره بما عن جميع المفاسد التي تقع في البيت، لولم تكن المرأة حاضرة، كما يستر الإنسان بلباسه عن الحر والبرد وكثير من المضار.
 - (5) كان كل واحد منهما كاللباس الساتر للآخر في ذلك المحذور الذي يفعلونه؛ وهذا ضعيف لأنه تعالى أورد هذا الوصف على طريق الإنعام علينا، فكيف يحمل على الستر بمن في المحذور.
- والثالث: "فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ".

وأصل المباشرة هو الزاق البشرة بالبشرة، وبعبارة أخرى هو مس كل بشرة الآخر: أي ظاهر جلده. فالمباشرة هنا كناية عن المباضعة الزوجية، وهي كالملامسة في حقيقتها وكنائتها وهي من نزاهة القرآن.

²⁷ رشيد رضا، المرجع السابق، ص. 176

²⁸ محمد علي الصابوني، قبس من نور القرآن، (بيروت: دار الفكر، 1988)، ص. 163 وانظر أيضا الألويسي، ج. 2، ص. 98

²⁹ رشيد رضا، المرجع السابق، ص. 176

³⁰ وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، (بيروت: دار الفكر، 1411هـ / 1991م) ج. 2، ص. 147

فسر جمال الكناية في هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى عبر عما لا يحسن به التصريح من عملية الجماع وما يتعلق بها بثلاث كنايات - الرث واللباس والمباشرة - جميلة رائعة مودبة فاقت الخيال، وهذا التعبير من أدب القرآن الكريم، وكذا سائر الألفاظ المستعملة فيها في القرآن كالدخول والمس والإتيان والقرب، كلها مستعملة على طريق التكنية، وكذا لفظ الوطء والجماع وغيرهما المستعملة في غير القرآن ألفاظ كناية وإن أخرجت كثرة الإستعمال بعضها من حد الكناية إلى التصريح، كما أن الفاظ الفرج والغائط بمعناها المعروف اليوم من هذا القبيل.

9-.... وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهُدْيُ مَحَلَّهُ ... (196)

فتعبير الكناية في هذه الآية هو (يَبْلُغُ الْهُدْيُ مَحَلَّهُ)، والمحل بكسر الحاء من حد "ضرب" يطلق للمكان كما هو الظاهر في الآية، وللزمان - كما يقال - محل الدين لوقت حلوله وانقضاء أجله، فهو هنا كناية عن ذبحه في مكان الإحصار.

فسر جمال الكناية في هذه الآية أنه تعالى عبر عن ذبح الهدي - من بدنة أو بقر أو شاة - في مكان الإحصار بعبارة رائعة جذابة يعني ببلوغ الهدي محله، فهي أبلغ في المعنى.

10- وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)

وفي هذه الآية ثلاث كنايات أيضا:

فالأول: "قُلْ هُوَ أَدَىٰ"

والمحيض اسم الحيض أي الحدث، وأصل هذه الكلمة من السيلان والإنفجار يقال حاض الوادي إذا سال، وحاضت الشجرة إذا سالت رطوبتها، ومنه الحوض لأن الماء يحوض إليه أي يسيل.³¹ وفي الإصطلاح هو دم فاسد يخرج من أقصى الرحم كل شهر مرة واحدة.³² ويبين الله في هذه الآية بأنه أَدَى؛ وهو ما يكره من كل شيء،³³ والأذى هنا كناية عن القدر على الجملة؛ لأن الحيض شيء يستقذر ويؤذي من يقربه نفرة منه وكراهة له، فتأذى منه المرأة وغيرها برائحة دم الحيض.

والثاني: "وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ"

³¹ أبو الطيب صدّيق بن حسن بن علي الحسين القنوجي البخاري، فتح البيان في مقاصد القرآن ، (فطر: إدارة إحياء التراث الإسلامي، 1410هـ / 1989م)، ج. 1، ص. 447

³² وهبة الزحيلي، المرجع السابق، ص. 297

³³ محمد الرازي فخر الدين، تفسير فخر الرازي، (بيروت: دار الفكر، بدون السنة) ج. 5، ص. 79

والقرب مرادف الدنو، ومنه قرب منه وإليه إذا دناه،³⁴ وهو هنا كناية عن الجماع؛ لأن الرجل إذا أراد من مرأته ما أراد من الوقاع لا بد أن يقرب إليها.

والثالث: " فَاتُّوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ "

والإتيان هو المجيء،³⁵ يقال أتى الرجل يأتيه ويأتوه إذا جاء إليه، وهو هنا كناية عن الجماع؛ لأن الرجل إذا أراد الغشيان بامرأته لا جرم أن يجيء إليها. فسر جمال الكناية في هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أتى عن عملية الجماع التي لا يحسن بها التصريح وما يتعلق بها، وعن الشيء المقذور بعبارة رائعة لا يسيغ بها على الأذن سماعه بعني بالأذى والقرب والإتيان.

11- نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَاتُّوْا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ... (223)

فتعبير الكناية في هذه الآية هو "نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَاتُّوْا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ".

فالحرث مصدر، وهو إلقاء البذر في الأرض وهو غير الزرع لأنه إنباته كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ. ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (الواقعة/ 56: 63-64)، خلافاً للجوهري الحرث هو الزرع، والحرث الزارع،³⁶ ومعنى حرث أي مزرع. فهو كناية عن تشبيه النطفة التي منها النسل، بما يلقي في الأرض من البذور التي منها النبات؛ من حيث إن كلا منهما مادة لما يحصل منه ولا يحسن بدونه.

فسر جمال الكناية في هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى عبر عن العلاقة الجنسية بين الزوجية بأحسن التعبير وأحسن الأدب في الخطاب، وفيها تنبيه قوي للرجال على حفظ النساء كأكثر همهم في حفظ المزارع.

12- لِاجْتِنَاحِ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ ... (236)

وتعبير الكناية في هذه الآية هو: "ما لم تمسوهن"

والمس هو اللمس،³⁷ يقال مس الرجل المرأة إذا لمسها، و الميسس والميسس والميسس كناية عن المباشرة و الغشيان المعلوم بين الزوجين، لأن الجماع لا يخلو منه،³⁸ قال الله تعالى: من قبل أن يتمأسا (المجادلة/ 58: 3 و 4) وقوله تعالى: لا مساسَ (طه/ 20: 97) أي لا أمس ولا أمس؛ لأن الجماع لا يخلو منه

³⁴ أحمد ورضان المنور، قاموس المنور، (سورابايا: فوستكا فروغريسف، 1997)، ص. 1102

³⁵ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، (بيروت: مكتبة لبنان، 1988)، ص. 2.

³⁶ الألويسي، المرجع السابق، ص. 187

³⁷ ابن منظور، المرجع السابق، ج. 6 ص. 217

³⁸ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، المرجع السابق، ص. 260

فسر جمال الكناية فهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى عبر عما لا يحسن به التصريح يعني الجماع وما يتعلق به بعبارة رائعة لطيفة، لأنه تعالى جميل ويحب الجمال فلم يكن في كلامه تعبير قبيح، ولو عند بيانه المعاني غير المستحسنة.

13- وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ... (237)

وتعبير الكناية في هذه الآية "مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ"، وقد تقدم البيان.

هـ- أسرار التربية الإسلامية المخزونة في تعبير الكناية

لم يكن نجاح العملية التعليمية كما يطلق عليها التربويون قد تأثرت بالطريقة أو الرسول المعلم كقدوة فحسب، وإنما أسلوب الكتاب السماوي كان له فضل عظيم في التأثير على المشركين والكفار في تغيير سلوكهم واستخدام عقولهم والمبادرة بإعلان إيمانهم. ويذكر هيورث في كتابه "الأدب العربي" أن أسلوب القرآن الكريم الذي يخاطب الحس تارة والوجدان تارة ثم يخاطب العقل والتفكير تارة أخرى في الموضوع الواحد وبدرجة واحدة في السمو فإن ذلك كان يناسب العرب أو الفئة المتعلمة وقتئذ. فقد كان العرب في أول أمرهم يعيشون على مشاعرهم تدفعهم ووجدانهم قبل أن تحدهم عقولهم حتى إذا استحصن هذه العقول ورقيت هذه المدارك رجع القرآن على الموضوع الواحد بالعقل والدليل والتفكير.³⁹

والكناية هي من الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم في تربيتهم، فهي من البراعة والبلاغة عدّها نقاد العرب، وعرفوا لها مكانتها في الإيضاح والتأثير، وهي عندهم أبلغ من التصريح، بل قال الطرطوسي: وأكثر أمثالهم الفصيحة على مجاري الكنايات⁴⁰.

وفيهما دروس ومواقف هي تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر وتنبية للمريد الصادق وتعريف وارشاد للفظن، فمن وفق الله تعالى للوقوف عليها فتح له بابها وعرف أسبابها، فيكشف له من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وطهارة باطنه وغزارة فهمه.

وأكبر درس ينبغي أن لا يفوتنا فهمه وإدراكه هو الدرس الذي يتضمنه هذا الأسلوب الكريم، فحاولت على ما يسهّر الله له على كشف أسرارها⁴¹ المؤثرة في التربية الإسلامية التي تهدف لتكوين الإنسان الكامل ليصيروا خلائف الله تعالى على وجه الأرض، وهي كما يلي:

1- أن تعبير الكناية نافعة في تدريب الطلاب والطالبات وتعويدهم على التفكير في فهم الدروس، لأن هذه الكناية في حقيقتها صور ظاهرة تختفي ورائها الحقيقة التي لا تظهر إلا بعد بحث، ونظر، وإعمال فكر، حيث تتولد من الصور الظاهرة صورة أو صور خفية، وفي المفارقات بين الظاهر

³⁹ أمانة أحمد حسن، نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول عليه السلام، ص. 258-261

⁴⁰ السيوطي، المرجع السابق، ص. 313

⁴¹ الأسرار جمع سرّ، من "أسررت الشيء" إذا أخفيته، وهو خلاف الإعلان. والمراد هنا الحكمة المستورة الخفية.

والخفي يغد الفكر ويروح في رياضة ذهنية تتنفس بها الروح، ويمكن للمعلمين على اختبارهم مباشرةً من غير علمهم ليعرفوا طاقات أفكارهم وقدرات عقولهم في قبول الدروس وفهمها، فينتقلون إلى ما هو أسهل وأقرب إلى فهمهم.

ب-والله سبحانه وتعالى لطيف كريم لم يكن قطّ معبرا عن المعاني غير المستحسنة إلا بالألفاظ لا تعافيهما الأذواق ولا تمجها الآذان، وذلك يمكن أن يرى في روعة البيان في تعبير القرآن في أسلوبه السامي، وجماله الفائق، فقد عبر الله تعالى عن العلاقة الجنسية بين الزوجية بتعبير رائع فاق الخيال في خمس آية من سورة البقرة:

(1) أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثِ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَابِسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَابِسٌ هُنَّ ... فَأَلَانَ بَاشِرُوهُنَّ ... (187)

(2) وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ... (222)

(3) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ... (223)

(4) لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ ... (236)

(5) وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ... (236)

وهذه من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة؛ هي وأشباهاها في كلام الله آداب حسنة، على المومنين أن يتعلموها، ويتأدبوا بها، ويتكلموا في محاوراتهم ومكاتباتهم. فينبغي للمعلمين والمربين والمدرسين أن يتبعوا هذه الأسوة من كلام الله الذي هو المعلم والمؤدب الأول في الخطاب وفي الإختيار أشرف الألفاظ، عند إلقاءهم الدروس للطلاب والطالبات لأن المعلمين والمربين والمدرسين أسوة وقدوة لهم عملا بالدين الذي هو أدب، وسمو وأخلاق.

ونرى ذلك واضحا في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي هو المرابي الثاني بعد الله حيث كان قدوة صالحة لأصحابه (المتعلمين) في ترجمة القرآن الكريم إلى سلوك عملي مشاهد. فإذا سمع الصحابة القرآن الكريم منه صلى الله عليه وسلم ثم شاهدوه ووجدوا هذه الكلمات انطبعت في نفس قائلها وتحركت بها جوارحه فكان قرآنا يمشي على وجه الأرض، فاهتدى بها ثم هدى من حوله. قال تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (الأحزاب/33: 21)

ج- أن الكناية موافقة لأهم المبادئ في التربية الإسلامية في خطاب الناس على قدر عقولهم الذي يشير إليه الغزالي بقوله: أن يقتصر المعلم بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أوو

يخبط عليه عقله إقتداءً في ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال: "نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم، ونكلمهم على قدر عقولهم".⁴²

فبالكناية يمكن للمعلم أن يواعي هذا المبدأ، لأنها أدب رمزي خالص، من حيث أنها ذات وجهين: وجه ظاهر غير مراد، ووجه خفي يندرس وراء هذا الوجه الظاهر وهو المراد على أنّ كلاً من الوجهين معا عامل في الحياة. فللوجه الظاهر أقوام يعاملون معه، ولا يتجاوزونه، فللوجه الخفي أقوام يمرّون بهذا الوجه الظاهر، دون أن يقفوا عنده، بل يجاوزونه إلى الوجه الخفي. مثلا من الكنايات القديمة، هذه الكناية التي يقدمونها كثيرا في الدراسات البلاغية، وهي قولهم: "فلان كثير الرماد"، فهذه القولة يقف الساذج منها عندمنطوقها، فلا يقع فهمه أكثر من أن هذا الإنسان عنده رماد كثير.

أما من جاوز حدّ السذاجة، فإنه يرى رؤى كثيرة وراء هذا المنطوق، وأن هذه الرؤى تقصر أو تمتدّ حسب درجته من الذكاء والفهم. فهناك من يفهم أن كثرة الرماد تدل على أنه يوقد نيرانا كثيرة للدفع أو نحوه، ثم تقف حدود رؤيته عند هذا. وهناك من يرى بعد هذا أن كثرة يقاد النار يدل على أنه كثير الطعام. ثم تكون وراء هذا منطقة أخرى للرؤية يتضح منها أن كثرة الطعام تدل على كثرة الأكلين. ثم إن كثرة الأكلين تدل على كثرة الواردين. ثم إن كثرة الواردين تدل على الكرم. وإذن فالرجل كريم.

وتطبيقا لذلك، ما حدث على عهد رسول الله بين أصحابه إذ قال يوما لفئة من أصحابه: "لا يصلين أحدكم العصر لا في بني قريظة"، فسافروا وجدوا ولكن الغزاة تدلت للغروب وهم لا يزالون ضارين في الأرض ولما وصلوا هنالك اجتهدوا، فمنهم من وقف عند ظاهر النص فترك العصر حتى خرج وقته ما دام لم يصل إلى بني قريظة، ومنهم من تأول النص وحمله على الكناية في الإسراع فصلى حين خاف على الوقت من قبل أن يصل إلى بني قريظة، وأخذ كل برأيه وهو يحترم الآخر ورأيه، وأقرهم الرسول على ذلك ولم يعب أحدا منهم على رغم أنه يترتب على بعض هذه الاختلافات أن ترك بعضهم الصلاة في وقتها اجتهدا منه.⁴³

إن هذا الرسول صلى الله عليه وسلم الذي هو النموذج الأمثل للمعلمين و المرين في الإسلام، قد استخدم هذا الأسلوب الجميل، وبه يواعي المبدأ التربوي في خطاب الطلاب على قدر عقولهم. فياحبذا! من المعلمين والمرين الحاذقين في اختيار الألفاظ والتعابير بأسلوب الكناية يؤتون بعبارة واحدة يتعامل بهذه العبارة كل أفراد من المتعلمين على مستوى عقولهم المختلفة.

⁴² محمد عطية الأبرشي، التربية الإسلامية وفلاسفتها، (بيروت: دار الفكر، بدون السنة)، ط. 2، ص. 256

⁴³ محمد عبدالعظيم الزرقاني، مناهل العرفان، (بيروت: دار الفكر، 1996)، ط. 1، ج. 2، ص. 27

د- لقد عد المسلمون قاطبة أن الأخلاق الكاملة أفضل من العلم، وعلوها أساسا لنجاح العالم والمتعلم على السواء. فكما أن الضوء يجب أن يسبق الصلاة كذلك ينبغي أن يبدأ المعلمون والمتعلمون بتطهير نفوسهم من الرذائل والنقائص؛ لأن العلم أيضا نوع من العبادة. ولا ريب أن في ذلك لب الحكمة، ونهاية الرشد، فكل تربية لا تؤسس على الخلق الكامل تعد تربية فاشلة. وكل مدنية لا تؤسس على الخير والفضيلة تعد مدنية خديعة زائفة كالسراب.

فلأهمية الأخلاق في التربية الإسلامية يكون من الواجبات التي يجب على المعلمين والمربين مراعاتها أن يجزروا المتعلمين عن سوء الأخلاق؛ ولكن يكون ذلك بمراعاة طريق الحكمة والرحمة لا بطريق التوبيخ، كما أشارتعالى: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (النحل/ 16: 125) فيمكن للمعلمين والمربين جزرهم عن سوء الأخلاق باستخدام الأسلوب الكنائي الذي مثله القرآن الكريم في تعابيره الفصيحة بجميع أنواعه من طريق التعريض ما أمكن، وبطريق الإشارة ما أمكن، وبطريق الإيحاء ما أمكن، وبطريق التلميح ما أمكن، ودوما مراعاة الرأفة والرحمة في جزرهم عندما حدث منهم ما ينافي الأخلاق من غير دخش وجه الأدب، وبدون مس ظاهر مكشوف. وهذا والله! لأعظم تأثيرا في قلوب المتعلمين من أن يصرحوا به.

وهذا قد أطبقه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه رضي الله عنهم فيعاملهم كما يعامل أبناء نفسه، ويظهر ذلك في قول تعالى: فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَفُتُّوا مِنْ حَوْلِكَ (ال عمران/ 3: 159)

وفي قول رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه: "إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لَوْلَدِهِ."⁴⁴

ه- وقد عرفنا في مبدأ التربية الحديثة اليوم أن يراعي المعلمون مستوى الطلاب من الناحية العقلية، ويخاطبهم على قدر عقولهم، ولا يلقي إليهم أشياء فوق مستوى إدراكهم، حتى لا ينفروا من التعلم، ويتخطبون فيما يفهمون. فباستخدام أسلوب الكناية يمكن للمعلمين إبراز المعاني المعقولة في صورة المحسوسات، فإنه كالمصور رسم للطلاب صورة للأمل أو لليأس، فبههم وجعلهم يرون ما كانوا يعجزون عن التعبير عنه واضحا ملموسا، ففهم المقصود من الدروس أقرب إليهم.

وذلك يمكن أن يرى في تعبير أسلوب الكناية في سورة البقرة مثل كناية النفاق بالمرض التي فيها قياس النظر على النظر، وكناية نقض العقد بنقض الحبل التي فيها تصوير المعنوية في صورة حسية صريحة، وكناية ضرب الذلة والمسكنة بمثل ضرب الخيمة المحيطة على صاحبها، وكناية

⁴⁴ الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، (بيروت: دار إحياء الكتب العربية، 1987)، ص. 115

الإعراض بالكلية من جعل الكتاب وراء الظهور فتجسست فيها المعاني، وفي كناية الأمم الحاضرة بما يديها والأمم السابقة بما خلفها التي فيها قياس البعيد بالقريب والنظير على النظير، وفي كناية إشراب عبادة العجل مثل شراب لذيد سائغ للشاربين التي فيها تجسيم المعقولة بالمحسوسة. فالمعاني المرادة في هذه الكنايات واضحة جلية، فالفهم أقرب إلى القارئ ومن حوطب بها.

و- وكان المربون من المسلمين يعلمون أن لدى الطفل ميلا طبيعيا لحب الثناء والظهور فيحمدون على ما يبدو منه من قول حسن أو فعل جميل، ويشجعونه على الإستمرار حتى يحافظ على منزلته لديهم ويجتهد في إصلاح نفسه دائما. ولم يكتروا من اللوم والذم والتوبيخ حينما يظهر حبه لنفسه ورغبته الشديدة في الأكل والشرب والملابس الجميلة، لأن الإكثار من التأنيب يميت قلب الطفل. ولهذا نصحوا المؤدبين بالتقليل من التوبيخ واللوم، واستعمال الحكمة في معاملته، فإن كلمة صغيرة من المدح والثناء والتشجيع وحسن الظن تصلحه وتهذبه، وتقوم خلقه؛ لأنه يحب الثناء بقطرته، ويكره اللوم وتثبيط الهمم، وإساءة الظن به.

وأسلوب الكناية هو أحد الخيارات في طريقة ثناء ومدح الطفل وتشجيعهم على التعلم وتقويم سلوكهم وتهذيب أخلاقهم، وذلك يمكن أن يرى في كثير من تعبير القرآن الكريم سواء في سورة البقرة وفي غيرها.

ز- فهي نافعة في إيقاظ حماسة الطلاب والطلابة وتثييرهم على طلب حقيقة الأشياء والوقائع، لأن الكناية أسلوب من أساليب التخفي والرمز، وذلك الأسلوب الذي يثير الخيال، ويحرك الوجدان. ويشوق النفس إلى تتبع آثار الحقيقة الغائبة التي يتخذ من هذا "الحضور" اللفظي دليلا عليها. وإذا قطعت النفس هذه المرحلة ثم التقت بتلك الحقيقة الغائبة استقبلتها الحبيب الذي عاد بعد غيبته، ورد بعد غربته، فتقر برؤيته العين، ويتلج بلقائه القلب.

و- الإختتام

لقد توصلت من هذه الدراسة إلى النتيجة بأن لتعبيرات الكناية في سورة البقرة أسراراً في التربية الإسلامية، وهي: أن الكناية نافعة في تدريب الطلاب وتعويدهم على التفكير، وأنها أسوة من كلام الله الذي هو المعلم والمؤدب الأول في الخطاب وفي الإختيار أشرف الألفاظ، وأنها موافقة لأهم المبادئ في التربية الإسلامية في خطاب الناس على قدر عقولهم، وأنها أشد تأثيراً في زجر المتعلمين عندما حدث منهم ما يناهز الأخلاق من غير دخش وجه الأدب وبدون مس ظاهر مكشوف، وبها يمكن للمدرس إبراز المعاني المعقولة في صورة المحسوسات فالفهم أقرب إلى الطلاب والطالبات، وأنها أحد الخيارات في طريقة ثناء ومدح الأطفال وتشجيعهم على التعلم وتقويم سلوكهم وتهذيب أخلاقهم، وأنها نافعة في إيقاظ حماسة المتعلمين وتثييرهم على طلب الحقيقة وراء الأشياء والوقائع، وبها يمكن للمعلمين أن يعرفوا طاقات أفكارهم وقدرات عقولهم

في قبول الدروس وفهمها فيتدرج في إلقائها، وأنها من الأسلوب التربوي الذي هو الأداة أو الوسيلة التي يستطيع بها المربون الوصول إلى قلب وعقل المتعلمين أو السامعين أو الملتقين محدثين فيهم التغيير المطلوب في التربية الإسلامية.

ز- التوصيات

- أ- ولعل من أسباب ضعف إحساس كثير من المسلمين بالقرآن الكريم هو بعد هؤلاء المسلمين كثيرا، أو قليلا عن اللغة العربية بأساليبها، وفنونها الأدبية المختلفة وخاصة تلك اللغة التي حفظها القرآن الكريم، فيلزم عليهم من الآن أن يتعمقوا هذه اللغة وبها يفهمون كيف أسلوب كلام الله تعالى الذي هو المرئي الأول، فهو أسوة للمعلمين والمربين في تربية المسلمين.
- ب- وعلى المربين أن يجتهدوا في التعرف والتعمق على أساليب التربية الإسلامية وبالخصوص على استنباطها من ينبوع الإسلام الأساسي، وأن يجتهدوا في تطبيقها حسب الأشخاص والزمان والمكان مع سعة الصدر.

قائمة المراجع

- إبراهيم، أحمد، البلاغة التطبيقية دعامة النقد الأدبي السليم، مطبعة المعرفة، مصر، بدون السنة.
- الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين محمود، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، ج. 1-4، دار الفكر لبنان، 1414هـ/1994م.
- أحمد حسن، أمانة، نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول عليه السلام ، دار المعارف، القاهرة، 1985م.
- الأصفهاني، الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن، دار الفكر، بيروت، بدون السنة.
- الأبراشي، محمد عطية، التربية الإسلامية وفلاسفتها ، مطبعة عيسى الباب الحلبي، مصر، ط. 3، 1395هـ/1975م.
- الأنصاري، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار الفكر، بيروت، بدون السنة.
- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله ، صحيح البخاري، دار ابن كثير اليمامة، بيروت 1407هـ/1987م.
- الجارم، علي، ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، توكو كتاب الهداية، سوريا، 1961م.
- حسن، أمانة أحمد، نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، دار المعارف، مصر، 1985م.
- الحديثي، احمد مطلوب وخديجة، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، بغداد، 1394هـ/1964م.
- الخياط، خالد بن عبد الكريم ، الأسلوب التربوي للدعوة إلى الله في العصر الحاضر ، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، 1412هـ/1991م.
- الرازي، محمد بن أبو بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، 1988م.
- رضا، رشيد، تفسير المنار، دار الفكر، بيروت، ج. 2، بدون السنة.
- الرازي، محمد فخر الدين، تفسير فخر الرازي، دار الفكر، بيروت، بدون السنة.
- الزرقاني، محمد عبدالعظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، دارالفكر، بيروت، 1996م.
- الزحيلي، وهبة، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، بيروت، 1997م.
- الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، دارالمعرفة بيروت، 1391هـ.
- الزبيدي، السيد محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر، بيروت لبنان، بدون السنة.
- الزخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار الفكر، بيروت، بدون السنه.
- الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار الفكر، بيروت، بدون السنة.
- ، قيس من نور القرآن، دار الفكر، بيروت، بدون السنة.
- ، التبيان في علوم القرآن، (مكة: دار عالم الكتب، 1985)

الصاوي، أحمد المالكي، حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين ، دار الفكر، بيروت، ج. 1، بدون السنة.

الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، 1988. الموصلي، محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير، المثل السائر ، مطبعة حجازي، القاهرة، 1454هـ/1935م.

العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي، كشف الخفاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد أبو جعفر، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، دار الفكر، بيروت، 1405هـ.

عكاوي، انعام فوال ، المعجم المفصل في علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني ، الكتب العلمية، بيروت، بدون السنة.

القيم، ابن، التفسير القيم، دار الفكر، بيروت، 1408هـ/1988. القنوجي، أبو الطيب صديق بن حسن بن علي الحسين، فتح البيان في مقاصد القرآن ، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، 1410هـ/1989م.

القزويني، الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه ، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، 1987م.

المطرزي، ابو المظفر ناصر، الإيضاح في شرح مقامات الحريري، المكتبة، إيران، بدون السنة. منور، أحمد ورضان، قاموس المنور، فوستكا فروغريسف، سوريا، 1997م. النحلوي، عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1993م.

الواحدي، أبو الحسن أحمد النيسابوري، أسباب النزول، دار الكتب العلمية، بيروت، 468 هـ. يالجن، مقداد، جوانب التربية الإسلامية الأساسية ، موسوعة التربية الإسلامية، رياض، 1406هـ/1986م.